الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	المعذبون فى الأرض (قصة)	٦١٣
محمود عزمى	تقرير ديوان المحاسبة	٦٢٣
محمد رفعت	حيرة الترك بين الشرق والغرب	٦٢٩
محمود تيمور	ذاهب مع الريح	٦٤١
سليمان حزين	روابط الطبيعة والتاريخ فى وادى النيل	٦٥٣
عبد الرحمن صدقى ...	قبل السفر (قصيدة)	٦٦٤
روجيه أرنالديز	الأصول القريبة للوجودية	٦٦٥
محمد عبده عزام	شعرى الضائع (قصيدة)	٦٨١
يحيى حقى	أم العواجز (قصة)	٦٨٣
سلامه موسى	ماذا أفدت من هذا العمر	٦٩١
فؤاد صروف	خليل مطران	٧٠٣
ريمون فرنسيس	عالم البيت فى مسرحيات بلوتس	٧٠٩
هنرى القيم	صورة الفنان (قصيدة)	٧١٨
هنرى بيرلين	بريطانيا التى غيرتها الحرب ولم تتغير	٧٢٠

من هنا وهناك (كلارا عزمى — بشر فارس)

شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما

من وراء البحار — من كتب الشرق والغرب — ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

الكاتب المصرى

جمادى الثانية ١٣٦٦ — مايو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٥ — عدد ٢٠

المعذبون فى الأرض

لم تنزل من السماء ، كما تنزل الملائكة ، رحمة وروحاً على الأرض . ولم تخرج من النهر ، كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن فى الزمان القديم من الجداول والأنهار ، ومن العيون والينابيع . ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم . وإنما نشأت فى القرية ، وفى أسرة بائسة شقية من أسرها ، كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن وألوفهن فى المدن والقرى دائماً . ولكنها امتازت من أترابها :

بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد

ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقى . فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتفاراً ، وفعل به البؤس والشقاء ، وشظف العيش الأفاعيل . وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة . وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التى تدفع البائسين من العمل إلى مالا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون . كان هذا كله قد غشى وجهى هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة ، والغباء .

ولم تكن تمتاز باشراق الوجه ونقائه فحسب ، وإنما كان إشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها

كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله ، فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً ، لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالاً ونوراً .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ، ملؤها الحياة والنشاط ، قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق ، وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيقى وتأهبى ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافى ، يلائم وجهها المشرق النقى ، وخَلْقها الرائع السوى ؛ فكان شخصها أشبه شئ بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وإنما تلذ كل ما فى الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ، ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التى استأثرت بأرق الحسن وأنقاه ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس فى التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكراً عليهم تساؤلهم وإلحاحهم فيه : « تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح ، وهو يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ! إنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن ينهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ، فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة لأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نَصَفاً . تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصا هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً

واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح . فكنت تراها فى آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك ، تهيئ العجين . وكنت تراها فى أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها فى سرعة مدهشة على الشكل الذى ينبغى أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رفيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذى يجعلها سائغة فى الأفواه والحلوق والبطون . وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، يقنعون بهذا الخبز فى كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشئ من طعام . فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شئ مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدى القصار من البصل والفجل ، وهذه الأعشاب التى لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقتّراً عليه فى الرزق ، قد ورث عن أبيه مهنة لا تغنى من جوع ، كان بناء متواضعاً لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شئ من سعف النخل ، فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيهم أيسر ما ينبغى أن يتقوا من عاديات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلا

أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، و يمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات . فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً ، تعمل فى دار من دور اليسار ، تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط فى خدمة أهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شئ من حزن كان يستقر فى قلبها ويتغلغل فى ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت تفكر من غير شك فى بؤس أبويها وإخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة البائسة بلفظ أو لحظ أو حركة ، إنما كانت تخفى حزنها كما يخفى البخيل كنزه ، وربما نمّت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت المتلئ العذب فتترك فى نفوس السامعين أثراً غريباً . وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرا سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلا عن أن يسألوا عنها . كانت حياتها فى تلك الدار بهجة متصلة ورضا مقيما ، تقطعهما بين حين وحين وفى لحظات قصار جداً هذه النميمة التى تهم أن تنبئ بالحزن ، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما همت أن تنبه إليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، تحسن إليهم كلما أتيح لها الاحسان . وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ الضعيف ، تأجرها على ذلك ، لا بالقروش التى تضعها فى يدها ، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هى الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيها ، وبالطرف تطرفها بها فى أيام الأعياد وفى أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء . ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، و إنما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلا .

وفى ذات يوم سمعت ربة الدار فى فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكى ، وصوت عصا تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ؛ فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذبا عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التى تتخذ لإدارة الخبز فى النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، بينما تمعن يدها فى جذب الشعر ، وتمعن الأخرى فى رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى ! وماذا أسمع ! ثم أسرعت إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، و إلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها . ولكن محبوبة أمعنت فى بكاء متصل فيه شهيق وزفير . ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التى تأخذ أمثالها من النساء حين يمعنّ فى الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشئ من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة إلى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزاراً : سمعت منها أنها وجدت فى زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتخون من يحسنون إليها و إلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شئ من نعمة ورضا! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء . من أجل هذه السرقة التى استكشفتها قتّر عليهم فى الرزق، فردت هى عن بعض الدور التى كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن . إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع .

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها : على رسلك أيتها المرأة ! فان ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، و إنما كلفتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما

شئ من طعام ، كدأبى معها دائماً . وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فانها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحى أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحى أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها تهديه إلى الفقراء إن وجدت فى طريقها الفقراء وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد فى طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه فى عرض الطريق إن لم تجد فى طريقها ناساً ولا كلاباً . ثم تضع الأطباق فى زاوية من زوايا البيت ، فاذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها فى ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولم تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها فى غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما . ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها باحدى يديها ، وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس فى يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكى ، وكلما أمعنت الفتاة فى النحيب أمعنت أمها فى الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها ، وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم . »

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يقص عليهم من أحاديث الجدّات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذى يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب . وفتيان القرية يسرون فى أنفسهم حبا لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها . والأمانى تلعب

بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ، ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام . لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ، عظيم النشاط ، جميل المنظر ، منطلق اللسان ، ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه فى ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذى يحيى النفوس ، والخوف الذى يميت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد فى هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها إلى أسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح فى صدقه وحبه . وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهى صادقة ملحة فى صدقها ، تبتغى الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى نفس خديجة ، فهى تمتنع على هذا الزواج ، وتلح فى الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادماً على تلك الحياة التى تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع ، حتى تثير الريبة فى نفس أبويها ؛ فما ينبغى أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضى بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة فى صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع . ولكن سيدة خديجة تردها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتخاشنها حيناً آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاساً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفى ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير ،

تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، و إنما يتردد فى حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شئ فانما يدل على خوفها وهلعها مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى فى أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد فى حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع و يمجها الذوق.وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزًّا عنيفاً وتزجرها زجراً مخيفاً ، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : أفيقى ! ثوبى إلى نفسك ! ماذا تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملا وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراهاً . تسمع منهن كل شئ ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا.

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها هى لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ، ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا أن تظهر عليه . وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتها لاخترعن الجواب على تساءلهن اختراعاً . وأى شئ أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأينا الفتاة أمس تزف إلى زوجها شاحبةالوجه ممتقعة اللون

زائغة البصر ، لا تمسك نفسها إلا فى جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهى تنظر إليه . ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان . أليس فى كل هذا وفى بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع و يروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضى ولا تذهب بشئ ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضى كما تعودت أن تمضى فى أعقاب الأعراس . فالفتاة هادئة مطمئنة و إن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله و بهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حبا ، و يزيد موقعها فى القلوب حسناً ، و إن كان صوتها الرخص العذب الصافى الممتلئ ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألذ موقعاً فى السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التى تكون بين انطلاق الفجر و إشراق الشمس ، والتى كان صوت خديجة يحضرها فى النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون ، وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة . وفى هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن فى آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذ الهم يستيقظ فى قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات

النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفى مكان بعيد من حيث تعوّد النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة و إلى جانبها بعض الحلى . والتمست خديجة فى النهار فلم يظفر بها الباحثون.

قالت سيدتها وهى تكفكف دموعاً تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ،ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس . لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ! فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

ط حسين